تعليقات ومناقشات

حتى العاطفة على غير مذكور

الدكتور عباس علي السوسوة

يهـدف هذا البحث إلى دراسة هذه الظاهرة الشائعة في العربية الفصحى المعاصـرة، ويحـاول أن يتتـبع جذورها في النصوص المكتوبة، في العربية المشتركة، منذ أن وجدت حتى الآن.

بداية لا بد من الإشارة إلى أن حتى في عربية عصر الاحتجاج (حتى عام ١٥٠هـ)، تأتي [١] ابتدائية وجارة، وناصبة للفعل المضارع، وعاطفة، وهي تفيد الغايـة، كما تحمل ظلالاً دلالية من الجمع، أو التعظيم، أو التحقير، أو القوة، أو الضعف أو التعليل، بحسب السياق الذي ترد فيه.

وقد شاع بين المتأدبين أن أحد النحاة القدماء قال: (أموت وفي نفسي شيء مـن حـتى). وهـذا القول منسوب لأبي زكريا الفراء (٢٠٧هـ)، في مصدر مـتأخر، بتغيـير طفيف هو: (أموت وفي قلبي من حتى) [٢]. ولم نجد القول في كتـب الفراء التي نشرت، ولا في المصادر القديمة التي ترجمت له. وعلى كل حال إذا كان صاحب القول – أيّاً كان– يريد بذلك معاني حتى، فذلك لا يسلّم له، إذ هـو أمر ينطبق على كثير من الأدوات التي سماها القدماء حروف المعاني، كالباء مثلاً.

المهـم أن العطـف بحتى في عربية عصر الاحتجاج قليل. وآية ذلك أن القرآن الكريم قد خلا من حتى العاطفة. ذكر ذلك السيوطي[٣]، وعضيمة[٤].

وللعطف بحتى شرطان[٥]: الأول: أن يكون الثاني جزءاً من الأول أو ما يتنزل منزلة البعض منه، مثل:

قام القومُ حتى زيدٌ

أكلت السمكة حتى رأسَها

أسرع القومُ حتى حميرُهم

والثانـــي: أن مـــا بعد حتى لا بد أن يكون عظيماً، أو حقيراً، أو قوياً، أو ضعيفاً، بعكس ما قبلها. مثل:

مات الناسُ حتى الأنبياءُ

نهض الحجاجُ حتى المشاةُ

ضعف الناسُ حتى السلطانُ

على أن العطف بحتى في عربيتنا المعاصرة ليس قليلاً، ودونك الصحف والمجـــلات والكتب لتنظر في أمثلتها الكثيرة. وقد تفرع عن هذا العطف عطفُ حتى على غير مذكور سابق في الجملة مثل:

لم يستطيعوا حتى شراءَ ملابس لأولادهم.

لم تعد تحقق حتى النجاحَ المادي.

لا تقدم منها ولا حتى سبحةُ هديةً.

وهـــذا النوع الأخير كثير في العربية الفصحى المعاصرة لكنه منعدم في عربـــية عصر الاحتجاج لذلك كان طبيعياً أن لا يتعرض النحاة له، سواء كانوا متقدميـــن أم متأخرين. فأما المتقدمون فمعلوم أنهم لا يصفون ظاهرة لم يجدوها أمـــامهم. وأما المتأخرون فلم يصفوا مادة لغوية جديدة، بل قصروا جهدهم على تنظـــيم أحكـــام الـــنحاة القدماء، وتهذيب مصطلحاتهم. ونحن إنما تعلمنا قواعد الفصـــحى التـــي وقفـــت عند حدود عام ١٥٠هـــ، فترتب على ذلك أن بعض الباحثين إذا وقف على ظاهرة نحوية في الفصحى الحديثة لم يجد لها ذكراً عند القدماء، عدّ ذلك من قبيل تأثير الترجمة عن اللغات الأوربية الحديثة في العربية المعاصرة، بطريق مباشر أو غير مباشر. فكأن العربية لا تتطور ذاتياً –بالمعنى

العلمي المحايد للتطور- بل هي بحاجة إلى مصدر أجنبي حتى تتغير. ومما نحن بصـــدده بشأن هذه الظاهرة أن باحثاً رائداً في دراسة الفصحى المعاصرة وقف علـــى جمـــل مثل (لم يقبلوا حتى الصمت) فعلق عليها بقوله (وقد شاع استخدام (حـــتى) على النحو السابق بتأثير اللغات الأجنبية، فهي تقابل في المثال السابق كلمة **even** في الإنجليزية)[٦].

ونحن مع تسليمنا بوجود تشابه بين اللغات المختلفة سواء كانت من أرومة واحدة أو مختلفة -لا نرد هذا التشابه بالذات إلى التأثر بالإنكليزية، بل نقول: إن ظاهـــرة العطف بحتى على غير مذكور موجودة في الفصحى شعراً ونثراً منذ القـــرن الثالـــث الهجـــري على الأقل. والنص الذي يلغي الاجتهاد سيكون هو الحكم.

ونـــبدأ في متابعة هذه الظاهرة في العربية الفصحى المشتركة بعد عصر الاحـــتجاج باللغـــة، فـــنجدها عـــند الشـــاعر الأندلسي يحيى بن الحكم الغزال (ت٢٥٥هـــ) قال:

((أرى أهـــل اليســـار إذا توفّـــوا بـــنوا تلـــك المقابـــر بالصـــخور
أبـــوا إلاّ مـــباهاةً وفخـــراً على الفقراء حتى في القبور)) [٧]

ففـــي البيـــت الثاني نرى أن البنية العميقة له: أبوا إلا مباهاة وفخراً على الفقـــراء في كل شيء حتى في القبور. ويصح أن تكون: أبوا إلاّ مباهاة وفخراً على الفقراء في كل شيء ومنها القبور.

ثـــم نجد الظاهرة عند عريب بن سعد القرطبي (ت بعد ٣٣١هـــ: ((وقيل لصـــاحب الدار: اكتب جميع ما ذهب منك، فكتب حتى المكنسة والمقدحة)) [٨]. والبنية العميقة للجملة الأخيرة: فكتب كل شيء حتى المكنسة والمقدحة.

وسنكتفي من الآن بعرض الشواهد المختلفة على ظاهرة العطف بحتى على غير مذكور في الجملة في بنيتها السطحية، لكنها مفهومة من البنية العميقة عند قارئ هذه الشواهد.

فنجد هذه الظاهرة في شعر أبي الطيب المتنبي (ت٣٥٤هـ)، ومنها:

((فجاز له حتى على الشمس حكمه وبان له حتى علي البدر ميسم))[٩]

ويقول الشارح: ((ظهر اسمه على كل شيء حتى على البدر))

وقد أحسن الشارح في بيان هذه الظاهرة لكنه نسي أيضاً أن بنية الشطر الأول العميقة تعني: فجاز له حكمه على كل شيء حتى على الشمس.

ومن شعر المتنبي أيضاً:

((كتمتُ حبك حتى عنك تكرمةٌ ثم استوى فيك إسراري وإعلاني))[١٠]

ويشرح ابن سيده البيت بما يوضح العطف غير المذكور، فيقول: ((أي كتمت حبي عن الأنام حتى عنك، وإنما كان كتمانه تكرمة لك، ثم غلبني فاستوى سري وجهري، أي اظهرتُ منه مثل ما كتمت))

كذلك نجد هذه الظاهرة في شعر محمود بن حسين الشهير بكشاجم (ت٣٦٠هـ):

((لقد بخلتْ حتى بطيف مسلّمٍ عليَّ، وقالت رحمةً لنحيبي:
أخاف على طيفي إذا جاء طارقاً وسادكَ أن يلقاه طيفُ رقيبي))[١١]

ثم نجدها عند المحسّن التنوخي (ت٣٨٤هـ): ((ولكن الطباع خستّ حتى في الحسد))[١٢]

ونجـد هذه الظاهرة عند ابن سينا (ت٤٢٨هـ) في مواضع متفرقة من القانون، ومنها حديثه عن الطفل: ((فإذا كانت بنيته غير متناسقة كان رديئاً حتى في فهمه وعقله)) (١٣)

وفـي حديـثه عـن خـواص نـبات الإذخر: ((دهنه ينفع من الحكة حتى في البهائم))(١٤)

وفـي حديثه عن ضرورة معرفة الطبيب المباشرة: ((فلا يحكم جزماً حتى في النبض أيضاً))(١٥)

ونجـد الظاهـرة عند العميدي في حديثه عن المتنبي (ت٤٤٣هـ): ((ولولا أنه كـان يجـد فضـل مـن تقدمه من الشعراء وينكر حتى أسماءهم في محافل الرؤساء... لكان الناس يُغضون عن معايبه))(١٦)

ثم نجدها في شعر أحمد بن يوسف المنازي (ت٤٣٧هـ) مادحاً وواصفاً دوحةً:

((نفـى حتى الذبابَ الخُضرَ منها ذبـابٌ من حسامكَ ذو اخضرار))(١٧)

بعـد ذلك نجد الظاهرة عند أبي العلاء المعري (ت٤٤٩هـ) يشرح بيتاً للمتنبي:

((مـا زلـتُ أطلـب العفافَ حتى في حال الخلوة مع الرقيب))(١٨) كذلك نجدها في لزومياته:

وقـد كذبوا حتى على الشمس أنها تهـان إذا حان الشروقُ وتُضربُ(١٩)

ونجدهـا عند ابن رشيق (ت٤٥٦هـ): ((كانت العرب لا تتكسب بالشعر، فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجراً. وقصد حتى ملك العجم)).(٢٠)

ونجدها عند عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧٤هـ): ((....ولذلك تجد الشيء يلتبس منه حتى على أهل المعرفة))(٢١)

ونجدها عند نصرالله بن قلاقس الإسكندري (ت٥٦٧هـ):

((والخط حتى في الحروف مؤثرٌ يختص بالترقيق والتفخيم))[٢٢]

ثم نجد الظاهرة في شعر أحمد بن عيسى الهاشمي (ت٥٩٣هـ):

((لم أكتحل في صباح يومٍ أهريقَ فيه دمُ الحسينِ
إلاّ لحزني، وذاك أنّي سوّدتُ حتى بياضَ عيني))[٢٣]

وفي أول القرن الهجري السابع نجدها عند كمال الدين الفارسي:

((وذلك غير مضر حتى في الحسبانات))[٢٤]

ثم نجدها في تاريخ ابن الأثير (ت٦٣٠هـ)؛ ومنها:

((فأخذهم البربر وذبحوهم حتى النساء والصبيان))[٢٥]

((وقتلوا منهم خلقاً كثيراً حتى عند الضريح))[٢٦]

((وقدّمه حتى على نفسه))[٢٧]

ثم نجدها عند الوزير ابن شداد (ت٦٣٢هـ): ((وكان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال))[٢٨]

ثم نجدها في شعر البهاء زهير (ت٦٥٦هـ)؛ ومنها:

((واستهلك البيعُ حتى طراحتي ولحافي))[٢٩]

((سجدت له حتى العيونُ مهابةً أو ما تراها حين يُقبلُ تُطرقُ))[٣٠]

((ومن أجله أضحى المقطم شامخاً ينافسُ حتى طورَ سينا في القدر))[٣١]

ونجد عند الشاعر ابن بانتكين أحد المتوفين في أول القرن الثامن، يهجو القاضي ابن بنت الأعزّ، ساخراً من اسمه:

((لاتعجبوا كثرة إسقاطه فإنه أسقط حتى أباه))[٣٢]

ونجد هذه الظاهرة في شعر أحمد بن أبي عَزَقَةَ (ت ٧٠٨هـ):

((وحملتُ من حُبّيكَ ما لو حُمِّلَتْ شمُّ الجبال أخفّها لم تحمل
من حيف دهر بالحوادث مُقدِمٍ حتى على غيل الهزبر المُشبل))[٣٣]

ونجدها كذلك عند ابن الطقطقى (ت٧٠٩هـ)، ومنها: ((وقد كان الملوك يبالغون في إقامة الهيبة والناموس، حتى بارتباط الأسود والفيلة والنمور))[٣٤]

وفي موضع آخر يقول: ((وخفي ذلك حتى على الصاحب علاء الدين))[٣٥]

ثم نجدها في شعر محمد بن دانيال الكحّال (ت٧١٠هـ) يصف برذونه المتعب:

((يجفل حتى من الشعير فما يذوق قضماً إلاّ مع الغلس))[٣٦]

كذلك نجدها في شعر صفي الدين الحلي (ت٧٥٠هـ):

((وأعرضتُ عن طيب الهناء لأنني نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن))[٣٧]

كذلك نجدها في المؤلفات المختلفة للأديب المؤرخ صلاح الدين الصفدي (ت٧٦٤هـ)، فمن ذلك ما جاء في حديثه عن تقديم السمع على البصر في القرآن الكريم: ((قدّم السمع على البصر حتى في قوله تعالى (صمٌ بكم عميٌ)، فقدم متعلَّق السمع على متعلق العين))[٣٨]

وفي كتابه الوافي تكرر، ومن ذلك: ((رأيت له عدة تصانيف حتى في الأطعمة))[٣٩]

و ((وله أشياء من مراعاة الإعراب في لفظه حتى مع النساء))[٤٠].

كذلك وردت عند ابن خلدون (ت٨٠٨هـ: ((وفرضت المغارم حتى على الحُجّاج))[٤١]

وتكررت هذه الظاهرة عند الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ). ومنها:

((وكان يؤثر على نفسه حتى بقميصه))[٤٢]

((فوجدوا الماء جليداً حتى في القرب والزمزميات))[٤٣]

بعد ذلك نجدها في تاريخ ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ)، ومنها ((وأخذوا حتى رخام بيته))[٤٤]

ومنها: ((ولعبت مماليك السلطان بالرمح بين مخاصمة، ولعّب حتى المعلمين))[٤٥]

ثم نجدها عند الشاعر محمد بن عبدالكريم البسطي (ت ح ٨٩٠هـ):

((فأذهلَ الناس حتى عن مراشدها واستقبلتني به الأشجانُ والغير))[٤٦]

ثم نجد الظاهرة عند النهروالي (ت٩٩٠هـ) الذي أرخ للفتح العثماني لليمن. ففي حديثه عن والي جدة يمدحه قائلاً: ((.... أو أشار إلى الليل البهيم لانجاب، مع عفاف حتى عن الطيف))[٤٧]

وفي حديث عن أحد المقاومين للترك يقول: ((واستولى (قطران الكلب)، على (ذراع الكلب)، وقطع الطريق إلى الترك من اليمين واليسار والقلب، ومنع حتى الطائر أن يطير))[٤٨]

وهي موجودة عند المقّري (ت١٠٤١هـ) ومن ذلك:

((ورعى الله من بان، وشاق حتى الرند والبان))[٤٩]

((وصار ملوك الطوائف يتباهون في أحوال المُلك حتى في الألقاب))[٥٠]

وهـــي موجـــودة عند الجبرتي (ت١٢٣٧هـــ) مؤرخ الحملة الفرنسية وأول أيام محمد علي باشا في مصر، ومنها: ((وإذ همّ بالخير أو عمل به أدخل الله البركة على أهل مملكته حتى في التجارات والزراعات))[٥١]

ونجـــد الظاهـــرة في أقوم المسالك الذي ألفه خير الدين التونسي عام ١٨٦٧م: ((كمـــا أشـــرت إلـــى ما كانت عليه أمة الإسلام المشهود لها حتى من مؤرخي أوربا الأعيان بسابقية التقدم في مضماري العرفان والعمران))[٥٢]

ثم نجد حتى العاطفة على غير مذكور عند الكواكبي (ت١٩٠٢م): ((كادت تجعل الغربيين أدرى منّا حتى في مباني ديننا))[٥٣]

ثـــم نجـــد الظاهـــرة عند الشيخ محمد عبده (ت١٩٠٥م) في حديثه عن البيت: ((يعـــيش فـــيه كـــل مـــنهما وقلـــبه ملآن بعيوب الآخر، وتبدو فيه المناقشات والمخاصـــمات في كل آن بسبب وبغير سبب، في الصباح وفي المساء حتى في الفراش))[٥٤]

وهذه الظاهرة موجودة عند عباس محمود العقاد في أكثر من مؤلَّف، ومن ذلك: ((مـــثلهم في ذلك مثل السوائم والأوابد في حريتها، فإنها لا تفعل ما تريد علوّا عـــن ربقـــة الأوهـــام ونبوّاً عن أحكام التقاليد، بل لخلوها من قابلية التقيّد حتى بالأوهام الباطلة))[٥٥]

((...فـــإن مـــن أصـــحاب المظاهر والأبهة من يترفع عن البكاء ويتكلف الجَلَد والسكون حتى في الفجائع الفادحة))[٥٦]

((بل هو لم يكن ممثلاً حتى للثورة العرابية التي كان زعيماً من زعمائها))[٥٧]

ثـــم نجـــد الظاهـــرة عـــند أمين الريحاني في الكتاب الذي تحدّث فيه عن حكام الجزيرة العربية (صدر أول مرة عام ١٩٢٤م)؛ ومنها: ((ان البساطة لتدنو في القصـــر من التقشف، فتبدو في السجاد العادي، وكراسي الخيزران، والدواوين المغطاة بقماش من القطن، والجدران العارية حتى من الآيات))[٥٨]

ثم نجدها عند توفيق الحكيم: ((فأنا لم أحاول عقد صلات حتى مع من كان يجب أن أتصل بهم من أدباء وفنانين))[٥٩]

ثم نجدها عند المؤرخ الأدبي الكبير شوقي ضيف: ((وهذا كله هزل ودعابة ودليل على أن المصريين لم ينسوا حتى في عصور الظلام ما طُبعوا عليه من التندر والفكاهة))[٦٠]

ثم نجدها عند الفقيه اللغوي صبحي الصالح: ((إنّ لك أن تقدّر جسامة الخطأ الذي وقع فيه بروكلمان حين أطلق القول بأن اللغات السامية تخلو من الصياغة التركيبية، شاملاً بحكمه هذا حتى العربية))[٦١]

ونجدها عند المؤرخ الأدبي محمد زغلول سلاّم في أكثر من كتاب، ومنها:

((ولم يسلم حتى الشعراء، من استخدام المصطلح))[٦٢]

((واشتهر بروحه المرحة وسخريته الضاحكة حتى في مجالس السلاطين))[٦٣]

ونجدها عند القصصي يحيى حقي: ((ستبقى نظراته منكسرة حتى أمام جيرانه))[٦٤]

ونجدها عند الناقد محمد أحمد العزب: ((...يتضح لنا أن التقيد بالخليل أو ترسّم حدوده غير وارد حتى عند الأقدمين))[٦٥]

كذلك نجدها عند الناقد ذي الرؤية الاجتماعية عبدالمحسن طه بدر (ت١٩٩٠م)؛ ومنها:

((يلخص لنا صورة عن علاقاته الإنسانية حتى مع الأدباء))[٦٦]

((تكون مجرد تصورات مثالية لم تحفر عميقاً حتى في نفوس أصحابها))[٦٧]

ثم نجدها عند الباحث قحطان التميمي: ((ولعل من المبالغة الطريفة الخفيفة هذه الأبيات التي هجا بها الحمدوني أحدهم بالبخل، مصوراً إيّاه من خلال مشهد تمثيلي بعيداً في أنانيته، عاقاً، منبت الصلة حتى بأبيه وإخوته))[٦٨]

ثـــم نجدها عند الفقيه الداعية محمد جواد مغنيّة: ((فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مســلمون)). أي: فــإن لــم يقولوا حتى هذه البديهة، وأبوا إلاّ الشرك والعناد، فأعرض عنهم، وقل لهم أنت ومن آمن بك: اشهدوا بأنا مسلمون))[٦٩]

ونجدهــا أيضــاً عند الناقد محمد فتوح أحمد: ((ألا يعني هذا أن ظواهر التقابل والازدواج تفرض نفسها حتى على أدق مكونات البنية الشعرية))[٧٠]

ثــم نجدها عند المفكر خالص جلبي ((إن الشعور الداخلي يصب نفسه حتى إلى تعبيرات الوجه وحركات اليدين))[٧١]

ثم نجدها عند الطبيب والروائي نجيب الكيلاني: ((إن الحرية الحقيقة حبر على ورق حتى في أوربا وأمريكا))[٧٢]

ثــم نجدهــا عند اللغوي سمير ستيتية: ((يقولون بها الشعر، ويخطبون، وينافر بعضهم بعضاً، ويستعملونها ليتفاهموا بها حتى في أحاديثهم))[٧٣]

ثم نجدها عند الاجتماعيين: إبراهيم بدران وسلوى الخماش، ومن ذلك:

((فهــي إذا غضبت أو أصابها ظلم حتى من أقرب الناس إليها، تنهال عليه إما جهاراً وإما خفية بالدعوات))[٧٤]

((ويســاهم الزجّالون والمؤلفون والمطربون والإذاعات العربية عامة في تأكيد دور الحسد حتى في المسائل العاطفية))[٧٥]

ونجدهــا عند الرسام محيي الدين اللّباد: ((وفي تلك المفاصل التاريخية العظيمة يولد الرجال والفنانون العظام حتى من الحرف الصغيرة))[٧٦]

ثـم نجدها عند الناقد الأدبي الكبير شكري عياد: ((ولكن الشاعر العبقري يصنع الجمال حتى من القبح))[٧٧]

كذلــك نجدهــا عند تلميذه الناقد عبدالحكيم راضي: ((هل ذلك هو سلوك الرجل الذي يرفض شعر الإسلاميين حتى في مجال الاحتجاج اللغوي))[٧٨]

ثـم نجدها عند القانوني حسن الزين: ((...عندما ظهرت تصرفات الوالي الجديد ومـا حملـت من مخالفات مسّت حتى جوهر العقيدة، بما عبّرت عنه من فسق وفجور))[٧٩]

ونختـتم جملـة هذه الشواهد على هذه الظاهرة الشائعة في كل صحيفة ومجلة وكـتاب بما جاء عند المفكر محمد عمارة: ((...بل هم مأمورون بتعميم العدل حتى على الأعداء ومن يكرهون))[٨٠]

وهكذا رأينا ظاهرة العطف بحتى قليلة في عصر الاحتجاج باللغة، ولم نعثر في كـتابات هذا العصر على شاهد للعطف على غير مذكور، ثم لاحظنا بعد عصر الاحتجاج أن هذه الظاهرة بدأت تبرز شيئاً فشيئاً عند كثير من المؤلفين في شتى فـنون التأليـف في كل القرون السابقة على قرننا، وهي الآن ليست بالظاهرة القليلة الورود، بل هي شائعة لا يكاد ينجو من استخدامها أحد.

لذلـك نظـرت لجـنة الأصـول التابعة لمجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورة المؤتمر الثالثة والأربعين (١٩٧٧/٣/٧)، في تعبيرات مثل:

أ. الهزيمة تهدد إسرائيل، يعترف بذلك حتى المتعاطفون معها.

ب. مجلس الأمن ينعقد وينفضّ دون أن يُعرض عليه حتى مشروع قرار.

ج. لم يقرأ حتى الصحف.

د. لم ينجح في أن يكون حتى عضواً في مجلس القرية.

هـ. تركَ الخلافُ أثره حتى على العلاقات الثقافية بين البلدين.

ورأت اللجـنة أن حتى في الأمثلة السابقة عاطفة والمعطوف عليه محذوف من المقام[٨١].

ولسنا في حاجة للقول بأن هذه الظاهرة عريقة في العربية، كما هو واضح من الشـواهد الكثـيرة التي أوردناها، وبذلك يسقط القول باستيراد هذه الظاهرة من اللغة الإنكليزية عن طريق الترجمة. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

الحواشي والإحالات والمراجع

(١) انظر في ذلك:

- كتاب سيبويه، تحـ عبدالسلام محمد هارون، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م-١٩٧٩م، ج١/٩٦،٩٧ وحـ٢/ ٣٨٣و٣/١٧-٢٨.
- المقتضب للمبرد، تحـ محمد عبدالخالق عضيمة، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٧٩م، حـ٢/٣٨-٤٠.
- كتاب المقتصد في شرح الإيضاح لعبدالقاهر الجرجاني، تحـ كاظم بحر المرجان، بغداد: الرشيد للنشر ١٩٨٣م، ص٨٤٠-٨٤٤.
- كتاب الحلل في إصلاح الخلل من كتاب الجمل، لابن السيد البطليوسي، تحـ سعيد عبدالكريم سعودي، بغداد: الرشيد للنشر ١٩٨٠م، ص ١٩٧-٢٠٠.
- كشف المشكل في النحو والتصريف، لعلي بن سليمان الحيدرة، تحـ هادي عطية مطر، بغداد: وزارة الأوقاف ١٩٨٥م، ح١/٦٢٧-٦٢٨.

(٢) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: الغيث المسجم شرح لأمية العجم، بيروت: دار الكتب العلمية ١٩٧٥م، ح١/١٦٢-١٦٣.

(٣) جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، القاهرة: ط السعادة، ١٣٧هـ، حـ١/١٦١-١٦٢.

(٤) محمد عبدالخالق عضيمة: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، القاهرة: دار الحديث، ق١حـ٢ص١٣٧.

(٥) انظر في ذلك:

- شرح كافية ابن الحاجب، لرضي الدين الاستراباذي، إستانبول: الشركة الصحافية العثمانية ١٣١٠هـ، حـ٢/٣٦٩.
- رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي، تحـ أحمد محمد الخراط، دمشق: مجمع اللغة العربية ١٩٧٥م، ص١٨١.
- ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحـ مصطفى النمّاس، القاهرة: ١٩٨٧م، حـ٢/٦٤٦-٦٤٧.

(٦) محمد حسن عبدالعزيز: الخواص التركيبية للجملة في اللغة العربية كما تمثلها لغة الصحافة المعاصرة في مصر، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة ١٩٧٥م، ص١١٢.

(٧) أحمد بن محمد المقّري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحـ إحسان عباس، بيروت: دار صادر ٦٨-١٩٧٢م، حـ٢/٢٥٦.

(٨) عريب بن سعد القرطبي: صلة تاريخ الطبري (ضمن ذيول تاريخ الطبري) تحـ محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف ١٩٩٠م، حـ١١/٢٣٦.

(٩) أبو العلاء المعري: معجز أحمد، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، تحـ عبدالمجيد دياب، القاهرة: دار المعارف ٨٦-١٩٨٨م، ح٣/١٥٠و١٥١.

(١٠) علي بن اسمعيل بن سيده: شرح مشكل شعر المتنبي، تحـ محمد رضوان الداية، دمشق: دار المأمون ١٩٧٥م، ص١٥٥. وانظر بيتاً آخر وشرحه في: العكبري(؟) التبيان في شرح الديوان، تحـ مصطفى السقا وآخرين، القاهرة: ط عيسى الحلبي، ح٢/٣٤١.

(١١) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: الغيث المسجم شرح لأمية العجم، ح١/٢٤٣.

(١٢) أبو علي المحسّن بن علي التنوخي: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحـ عبود الشالجي المحامي، بيروت: دار صادر ١٩٧١م، ح١/٢١.

(١٣) الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبدالله بن سينا: ألقانون في الطب، القاهرة: ط الأميرية ١٢٨٤هـ، حـ١/١٢٠.

(١٤) المصدر السابق، حـ/٢٤٧، وانظر حـ٣ ادوارد القش، بيروت: مؤسسة عز الدين ١٩٨٧م، ص٨٢٨، ١١٩٠.

(١٥) المصدر السابق، ح٤ (تح ادوارد القش) ص١٨٦٦.

(١٦) أبو سعد محمد بن أحمد العميدي: الإبانة عن سرقات المتنبي، تحـ إبراهيم الدسوقي البساطي، القاهرة: دار المعارف ١٩٧٠م، ص٢٤.

(١٧) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات، حـ٨ تحـ محمد يوسف نجم، فيسبادن: فرانز شتاينر ١٩٧١م، ص٢٨٥.

(١٨) أبو العلاء المعري: معجز أحمد، حـ٣/٢٩٥.

(١٩) أبـــو العـــلاء المعري: لزوم مالا يلزم، شرح نديم عدي، دمشق، دار طلاس ١٩٨٨م، حـــ١/٩١.

(٢٠) أبـــو علي الحسن بن بن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحـــ محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت: دار الجيل ١٩٧٢م، حـــ١/١٨١.

(٢١) عـــبدالقاهر الجرجانـــي: أســـرار البلاغة، تح هـــ. ريتر، اسطنبول: وزارة المعارف ١٩٥٤م، ص٢٩٧.

(٢٢) الصفدي: الغيث المسجم، حـــ٢/١٢٥.

(٢٣) الصفدي: الوافي بالوفيات، حـــ٧ تحـــ إحسان عباس، فيسبادن: فرانز شتاينر ١٩٦٩م، ص٢٧٤.

(٢٤) أبـــو الحســـن كمـــال الديـــن الفارســـي: تنقـــيح المـــناظر لذوي الأبصار والبصائر، تحـــ مصطفى حجازي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م، ص٢٨٣.

(٢٥) عـــز الديـــن، علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير: الكامل في التاريخ، بعناية كارلوس جوهانز تورنبرج، بيروت: دار صادر ١٩٧٩م، حـــ٩، ٢١٧.

(٢٦) المصدر السابق ح١٠/٢٦٠.

(٢٧) المصدر السابق ح١٠/٢٦٩ وانظر أيضاً حـــ ١٢/٣٢.

(٢٨) بهاء الدين يوسف بن رافع بن شدّاد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحـــ جمال الدين الشيال، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٤م، ص١٥٨.

(٢٩) بهـــاء الديـــن زهـــير: ديوانه تحـــ محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد طاهر الجبلاوي، القاهرة: دار المعارف ١٩٧٧م، ص١٧٣.

(٣٠) المصدر السابق، ص١٧٦.

(٣١) المصدر السابق، ص١٠ وانظر أيضاً ص١٨١.

(٣٢) ابـــن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تصحيح سالم الكرنكوي، حـــيدر أبـــاد الدكن: جمعية دائرة المعارف العثمانية ١٣٤٩-١٣٥٠هـــ، حـــ١/٣٢٧. وانظر الصفدي: الوافي بالوفيات حـــ٨/٢١٧.

(٣٣) إبراهـــيم بـــن مراد (محقق): مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشره، بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٩٨٦م، ص١٦٧.

(٣٤) محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت: دار صادر، ص١٨.

(٣٥) المصدر السابق، ص٢٣

(٣٦) المختار من شعر الحكيم بن دانيال، اختيار صلاح الدين الصفدي: تحـ محمد نايف الدليمي، الموصل: مكتبة بستام ١٩٧٩م، ص٨٣ وانظر أيضاً ص١٩٣.

(٣٧) صفي الدين الحلي: ديوانه، بيروت: دار صادر، ص٣٦٤، وانظر ص٥٥٩.

(٣٨) صلاح الدين الصفدي: نكت الهميان في نكت العميان، تحـ أحمد زكي بك، القاهرة: ط الجمالية ١٩١١م، ص١٧.

(٣٩) صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات، ح٣ تحـ س. ديدرينغ، فيسبادن: فرانز شتاينر ١٩٧٤، ص١٦٣.

(٤٠) المصدر السابق ح٤/٩٠، وانظر ص١٨٦، وهناك أمثلة أخرى في الوافي حـ٧/٣٥٤ وحـ٨/١٢٠.

(٤١) مقدمة ابن خلدون، تحـ علي عبدالواحد وافي، القاهرة: نهضة مصر ٩٧م-١٩٨١م، ص٧٣٣.

(٤٢) ابن حجر العسقلاني: انباء الغمر بأنباء العمر، حيدر أباد الدكن: جمعية دائرة المعارف العثمانية٧٦م-١٩٧٦م ح١/٦٥.

(٤٣) المصدر السابق، تحـ حسن حبشي، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٧٢م، حـ٣/٢٥٤، وتنظر أمثلة أخرى في صفحات ٢٩، ٣٠، ١١٦، ١٩١.

(٤٤) أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي: النجوم الزاهرة، القاهرة: دار الكتب المصرية ١٩٥٠م، حـ١٢/٨٦.

(٤٥) المصدر السابق، حـ١٤، تحـ فهيم محمد شلتوت وجمال محمد محرز، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف ١٩٧١م، ص١٠١، وانظر ص٢٩٩. وتنظر أمثلة أخرى في المصدر نفسه في:

- حـ١٥ تحـ إبراهيم علي طرخان، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف ١٩٧١م، ص١٣٣، ١٧٤، ٤٠٠، ٥١٤ وحـ ١٦ تحـ جمال الدين الشيال وفهيم محمد شلتوت، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م، ص١٥٨.

(٤٦) محمد ابن شريفة: البسطي آخر شعراء الأندلس، بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٩٨٥م، ص٦٤.

(٤٧) قطب الدين محمد بن محمد النهروالي المكي: البرق اليماني في الفتح العثماني، المدينة المنورة، ط٢، منشورات المدينة ١٩٨٦م، ص٧-٨.

(٤٨) المصدر السابق، ص٣٨٨.

(٤٩) المقري: نفح الطيب ح١/١٦.

(٥٠) المصدر السابق ح١/٢١٣.

(٥١) عبدالرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بيروت: دار الجيل، حـ١/٢٢، وانظر على سبيل المثال حـ١/٤٠، ٦١٠، ٦٢٢ وحـ٢/٢٧، ٥٥ وحـ٣/١٧، ٥٣، ٦٢٣.

(٥٢) خير الدين التونسي: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحـ معن زيادة، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ١٩٨٥م، ص١٤٧.

(٥٣) عبدالرحمن الكواكبي: ام القرى، ط٢، حلب: المطبعة العمومية ١٩٥٩م، ص٥٥ وانظر مثلاً ص٥٩، ٦١، ٨٤، ٩٠، ١٣٤، ١٤٨، ١٨٥.

(٥٤) الأعمال الكاملة للامام محمد عبده - حـ٢ (الكتابات الاجتماعية) حققها وقدم لها محمد عمارة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٢م، ص٧٦.

(٥٥) عباس محمود العقاد: الفصول، ط٢، بيروت: دار الكتاب العربي، ص١٧٥، وانظر ص١٨٩، ص٢٦٧.

(٥٦) عباس محمود العقاد: جحا الضاحك المضحك، بيروت المكتبة العصرية: ص٢٧.

(٥٧) عباس محمود العقاد: شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، ط٣، القاهرة: النهضة المصرية، ص١٣ وانظر مثلاً ص٥٥، ١٥٤.

(٥٨) أمين الريحاني: ملوك العرب، بيروت: دار الجيل ١٩٨٧م، ص٢٦ وانظر مثلاً ص٩، ١٥، ٤٣، ٥٩، ٦٠، ٧٢، ٩٧، ١٢٦، ١٢٨.

(٥٩) توفيق الحكيم: سجن العمر، القاهرة: مكتبة الآداب، ص٢٨٥.

(٦٠) شوقي ضيف: الفكاهة في مصر، ط٢، القاهرة: دار المعارف (اقرأ) ١٩٨٥م، ص١١٠

(٦١) صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة، ط١٠، بيروت: العلم للملايين ١٩٨٣م، ص٣٢٩ وانظر مثلاً ص١٢٦، ٣٢٤، ٣٣٣، ٣٣٥.

(٦٢) محمد زغلول سلاّم: الأدب في العصر المملوكي، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧١م، جـ٢/١٠٩، وانظر جـ٢/١١٤، ١٦٧، ٢٣١.

(٦٣) محمد زغلول سلاّم: الأدب في العصر المملوكي، إسكندرية: منشأة المعارف ١٩٩٦م، جـ٣/١٨٧، وانظر جـ٣/٢١٤، ٣٤٦. وانظر للمؤلف أيضاً: الأدب في العصر الفاطمي، الكتابة والكتاب، إسكندرية: منشأة المعارف ١٩٩٣م، ص٢١٦.

(٦٤) يحيى حقي: ناس في الظل، القاهرة: كتاب الجمهورية ١٩٧١م، ص٢٢ وانظر ص١٠٦.

(٦٥) محمد أحمد العزب: ظواهر التمرد الفني في الشعر المعاصر، القاهرة: دار المعارف (اقرأ) ١٩٨٧م، ص٦٢، وانظر مثلاً ص١٠٩، ١٠٨، ١١٦، ١٨٠.

(٦٦) عبدالمحسن طه بدر: الروائي والأرض، ط٢، القاهرة: دار المعارف ١٩٧٩م، ص٩٠.

(٦٧) المرجع نفسه، ص٤٥، وانظر مثلاً ص١٠٣، ١٠٧، ١١٨، ١٢٤، ١٢٥.

(٦٨) قحطان رشيد التميمي: اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، بيروت، دار المسيرة، ص٤٠٦.

(٦٩) محمد جواد مغنية: التفسير الكاشف، بيروت، جـ١، ٢٦٨.

(٧٠) محمد فتوح أحمد: شعر المتنبي – قراءة أخرى، القاهرة: دار المعارف ١٩٨٣م، ص٧٠م، ص٧٠، وانظر أيضاً ص٦١.

(٧١) خالص جلبي: في النقد الذاتي، ضرورة النقد الذاتي للحركة الإسلامية، بيروت: الرسالة ١٩٨٤م، ص١١٠، وص١٢٦، ٢٣٥، ٢٥٧، ٢٧٦.

(٧٢) نجيب الكيلاني: لمحات من حياتي، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٩٨٥م، ح١/٧ وانظر مثلاً جـ١/٧٧، ١٧٣، و جـ٢/٢١٥.

(٧٣) سمير شريف ستيتية: الازدواجية في اللغة العربية، (ضمن ندوة الازدواجية في اللغة العربية) عمان، مجمع اللغة العربية الأردني ١٩٨٨م، ص١٤٠.

(٧٤) ابراهيم بدران وسلوى الخماش: دراسات في العقلية العربية –ط٣، بيروت: دار الحقيقة ١٩٨٨م، ص٢٠٥.

(٧٥) المرجع نفسه ص٢٥٧.

(٧٦) محيي الدين اللّباد: نظر، جـ٢، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع ١٩٩١م، ص٤٣، وانظر ص٦٧.

(٧٧) محمد شكري عيّاد: المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، الكويت: عالم المعرفة ١٩٩٣م، ص١٠٧، وانظر ص٢١٢.

(٧٨) عبدالحكـــيم راضي: النقد العربي وشعر المحدثين في العصر العباسي – محاولة لقراءة جديدة، القاهرة: دار الشايب ٩٣م، ص٢٠، وانظر ص٢٢٥.

(٧٩) حســـن الزين: علي بن أبي طالب وتجربة الحكم، بيروت: دار الفكر الحديث، ١٩٩٤م، ٢٣، وانظر مثلاً ص٦٧، ١٣٤، ١٤٤، ١٤٧.

(٨٠) محمد عمارة: مفهوم الحوار عند جارودي، مجلة العربي، الكويت، العدد ٤٦٢، مايو ١٩٩٧م، ص١٥٤ ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، كتاب في أصول اللغة، حـــ٣ ص١٣٠ (١٩٨٣م).

(٨١) محمد العدناني: معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة، بيروت: مكتبة لبنان ١٩٨٤م، ص١٤٤.

سمات العطاء الأدبي والفكري
في القرن الثامن الهجري

الأستاذ هلال ناجي

بدأ الغزو في القرن الثامن الهجري الفرنجي الصليبي عام ٤٨٨هـ وانتهى عام ٦٩٠هـ ، أي أنّه جاوز القرنين دكّ خلاله المغول أسوار بغداد قادمين من المشرق ودمّروا حضارة العراق سنة ٦٥٦هـ ، وانطلقوا نحو بلاد الشام عاصفين بإرثنا الأدبي والعلمي والحضاري. وهكذا كان المشرق العربي نَهْباً لغزاة محتلين من غربه وشماله وشرقه. وتحالف التتار والفرنج والكرج والروم غير مرة لاحتلال أرضنا وتدمير إرثنا الحضاري، حتى كانت نهاية الغزاة المغول في معركة " عين جالوت " الخالدة. إن حروبا استمرت قرنين من الزمن هما القرنان السادس والسابع، وغزواً استيطانياً مُريعا قد دَمَّر دونما شك الكثير من موروثنا الأدبي والعلمي والحضاري ومع إطلالة القرن الثامن الهجري أدرك الأدباء والعلماء والمؤرخون العرب المسلمون أهمية الحفاظ على هذا التراث العربي الإسلامي العظيم، فَنَهدوا إلى تصنيف موسوعات كبرى وفنون علمية حفاظاً عليه من الضياع والتبدد، وهكذا بدأ عصر الموسوعات والمتون العلمية والشروح على المتون، وهي السمات البارزة في النتاج الأدبي والفكري خلال القرن الثامن الهجري، مؤمنين بضرورة انتفاع الخلف من معارف السلف وما أبدعته عقولهم، وليقوموا هم بتطوير ما وصلهم شرحاً وتفسيراً.

وأنا في الأصل رجل قانون لا أُلقي الكلام على عواهنه، وإنّما أعضده بالدليل والحجة والبرهان، من أجل ذلك سأبسط صورة الحركة الفكرية في القرن الثامن الهجري ليتضح بالدليل العلمي خطأ تسمية هذا القرن والقرن الذي سبقه بـ " الفترة المظلمة ".

فأماً أنّه قرن الموسوعات الكبرى فحسبنا شاهداً عليه:

أولاً: موسوعة" نهاية الأرب في فنون الأدب" لأحمد بن عبد الوهاب النويري القريشي(ت٧٣٣هـ) وقد طبع منه بمصر حتى الآن أكثر من ثلاثين مجلداً.

ثانياً : موسوعة " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لأحمد بن يحيى بن فضل العمري (ت٧٤٩هـ)، وهو في الأصل كتاب في الجغرافية وتقويم البلدان، لكنه تضمن كتباً مبسوطة في التاريخ والتراجم ومختار الشعر والكلام على النبات والحيوان والإنسان، فهي موسوعة لا غنى لباحث في الآداب عنها. وقد طبعها بالتصوير المستعرب التركي العلامة فؤاد سزكين في بضعة وعشرين مجلداً.

ثالثاً : موسوعة " مباهج الفكَر ومناهج العبَر " لمحمد بن إبراهيم الأنصاري الشهير بالوطواط (ت ٧١٨هـ). وهي موسوعة وقعت في أربعة مجلدات، خصص الأول للسماء والكواكب والآثار والأيام، والثاني : للأرض، والثالث للحيوان والرابع للنبات.

وما زالت هذه الموسوعة مخطوطة حتى اليوم.

والقرن الثامن أيضا كان قرن " المتون العلمية" المتخصصة. واكتفي هنا بذكر بعضها مما صنّفه العراقيون من هذه المتون:

١- " الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسب البديع" لصفي الدين الحلّي (ت ٧٥٠هـ) وهي منظومة في مدح الرسول الأعظم تضمّ مائة وخمسة وأربعين بيتاً في البحر البسيط وتشتمل على مائة وواحد وخمسين نوعاً من محاسن البديع. وهي تمثّل استدراكاً رائعاً على كتاب" تحبير التحرير" لابن أبي الإصبَع المصري(ت ٦٥٤هـ)، وقد شرحها ناظمها وطبع المتن والشرح بتدقيق نسيب نشاوي في دمشق سنة ١٩٨٣ .

٢- منظومة " لوامع الأنوار في نظم غريب الموطأ وصحيح مسلم " لابن رضوان الموصلي محمد بن محمد بن عبد الكريم(ت ٧٧٤هـ) . ونسخة المؤلف ما زالت مخطوطة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد.

٣- " نهج الرشاد في نظم الاعتقاد " ليوسف بن محمد العُبادي العقيلي السُرَّمرّي (ت ٧٧٦هـ) وهي أرجوزة في الفقه الحنبلي، نشرتُها محققة في العدد الأول من مجلة جامعة صدام للعلوم الإسلامية- بغداد ١٩٩٣ . ولهذا العالم متن منظوم آخر في ألف بيت عنوانه " نظم الغريب في علم الحديث ".

٤- منظومة " أنيس الغريب وجليس الأريب " وهي في غريب القرآن، ومنها تحقيقات لغوية بالغة الأهمية، نظمها نصر الله أحمد بن محمد التستري البغدادي المعروف بالجلال البغدادي (٧٣٣-٨١٢ هـ) وكانت منه مخطوطة بمكتبة المرحوم عباس العزاوي.

٥- ألفية في الخط والكتابة عنوانها " العناية الربانيّة في الطريقة الشعبانية " وألفية في النحو عنوانها " كفاية الغلام في إعراب الكلام " وألفية في العروض والقوافي عنوانها " الوجه الجميل في علم الخليل " . هذه الالفيات الثلاث نظمها زين الدين شعبان بن محمد الآثاري القرشي الموصلي مولدا المصري مدفناً(٧٦٥-٨٢٨هـ) وكلها مما نظمه في القرن الثامن الهجري حسبما وجدت في مخطوطاتها. وكنت نشرت ألفية الخط في بغداد سنة ١٩٧٩، وألفية النحو في بيروت سنة ١٩٨٧ بمشاركة أخي الدكتور زهير زاهد، وألفية العروض والقوافي في بيروت سنة ١٩٩٧ .

٦- منظومة في القراءات على وزن الشاطبية، ونظم " النافع " في الفقه وكلاهما لفخر الدين بن النصيح العراقي (ت ٧٥٥هـ).

٧- " أرجـــوزة الأنغام " وهي منظومة في الموسيقى نظمها بدر الدين محمد بن علـــى الأربلـــي سنة ٧٢٩هـــ، ونشرها المرحوم عباس العزاوي في كتابه "الموسيقى العراقية".

٨- " إرشـــاد القاصـــد إلـــى أســـنى المقاصد " لمحمد بن إبراهيم الأنصاري الســـنجاري الشـــهير بابن الأكفاني (ت ٧٤٩ هـــ) - نشرها الشيخ طاهر الجزائري - بيروت ١٩٠٤.

٩- الرسالة العضدية في الوضع لعبد الرحمن بن أحمد الأيجي (ت ٧٥٦ هـــ)، وهي متن علمي يعين ألفاظ اللغة من حيث الوضع.

ومن غير العراقيين:

١٠- عـــبد الله بن يوسف بن أحمد الشهير بابن هشام (٧٠٨-٧٦١هـــ) ومولده ووفاتـــه بمصـــر٠ قال ابن خلدون : ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصـــر عـــالم بالعربـــية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه٠ من تصانيفه المطـــبوعة:" مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" و" أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك" و" موقد الأذهان وموقظ الوسنان " وشذور الذهب في معرفة كلام العـــرب " و" الإعراب عن قواعد الإعراب " و" قطر الندى وبلّ والصدى " و " اعتراض الشرط على الشرط " و " إقامة الدليل على صحة التمثيل وفساد التأويل" و " تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد " و " الجامع الصغير في النحو " و " شـــرح قصـــيدة بانـــت سعاد " و " شرح اللمحة البدرية في علم اللغة العربـــية" و " فـــوح الشذا بمسألة كذا " و مسألة الحكمة في تذكير قريب في قولـــه تعالى "(إن رحمة الله قريب من المحسنين)" و " المسائل السفرية في النحو " و " مسائل في إعراب القرآن "٠

١١- ابن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٧٦٩ هـــ)٠ وكان إماماً في النحو والبلاغة وله " شرح ألفية ابن مالك " وبه اشتهر٠

وانمـــاز القـــرن الثامن أيضاً، بأنه القرن الذي صُنِّفَت فيه أكبر موسوعات الـــتراجم والســـير في المكتبة على الإطلاق. فيه صنّف صلاح الدين خليل بن أيـــبك الصفدي (ت ٧٧٦هـــ) موسوعته الضخمة " الوافي بالوفيات " وقد طبع منها حتى اليوم أكثر من عشرين جزءاً.

وفيه صنّف محمد بن أحمد بن الذهبي(ت ٧٤٨هـــ) موسوعته المعنونـــــة " ســـير أعـــلام النـــبلاء " وقـــد طبعت في خمسة وعشرين مجلداً وموسوعته الصغـــــرى " العِبَر في خبر من غَبَر " في خمسة أجزاء

وفـــيه صـــنّف محمـــد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـــ) موسوعته: " فوات الوفـــيات " وقـــد حققهـــا إحســـان عباس وأخرجها في خمسة أجزاء. و" عيون الـــتواريخ" و هـــو كتاب تراجم أيضا نشرت منه المؤرخة نبيلة عبد المنعم عدة أجزاء بعضها بالمشاركة، ومازال الباقي وهو الأكثر ينتظر النشر.

إن هـــذه الموسوعات وإن كانت كتب سير وتراجم إلا أنها طفحت بنفائس الشعر والنثر والأخبار الادبية، فهي كتب تاريخ وأدب دون شك. ولابُدّ لنا ونحن في معرض الحديث عن موسوعات التراجم والسير المصنفة في القرن الثامن أن نشير إلي أنّ ابن الفُوطي عبد الرزاق بن أحمد الشيباني(٦٤٢-٧٢٣هـــ) صنّف في القرن المذكور أوسع معاجم الألقاب: قال الذهبي في تذكرة الحفاظ ما نصه: " كتـــب من التواريخ ما لا يوصف و مصنفاته وَقْرُ بعير. ثم عمل تاريخاً في خمســـين مجلداً أسماه " مجمع الآداب في معجم الأسماء على معجم الألقاب ". وهـــذا المعجـــم العجيـــب شاء القدر أن يسلم الجزء الرابع منه، فنشره العلاّمة مصـــطفى جواد بدمشق في أربعة مجلدات ضخام، فكيف كان الأمر لو وصلنا المعجـــم كـــاملا؟ ثم إنّ أوفى موسوعة في أسماء رجال الحديث صنّفها الحافظ يوســـف المـــزي(ت٧٤٢هـــ) في هذا القرن بعنوان " تهذيب الكمال في أسماء الرجال " وقد طبعه بشار عواد معروف في خمسة وثلاثين مجلداً.

وانماز هذا القرن أيضا بنهود جمهرة من مؤرخيه إلى كتابة تواريخهم فيه، فكـــان ممن طبعت تواريخه : الذهبي وموسوعتـــــــــه " تاريخ دول الإسلام "حققه عبد السلام التدمري، وابن كثير(ت٧٧٤هـــ) وتاريخه " البداية والنهاية " وعـــبد الله اســـعد اليافعي (ت ٧٦٨هـــ) وتاريخه " مرآة الجنات "، والأشرف الغساني(ت٨٠٣هـــ) وتاريخه " العسجد المسبوك " وابن الوردي عمر بن مظفر (ت٧٤٩هـــ) وتاريخـــــه " تتمة المختصر في أخبار البشر". وابن خلـــــدون (٧٣٢-٨٠٨هـــ) وتاريخه " كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ". هذه التواريخ المطبوعة أشهر من أن أُفَصِّل القول فيها، وكلها من نتاج القرن الثامن الهجري.

أكثر من هذا أن جُلّ " كتب الطبقات " صُنِّفت في هذا القرن ومنها:

طبقات الشافعية الكبرى لعبد الوهاب بن على السبكي(ت٧٧١هـــ)، وطبقات الشـــافعية الصـــغرى للأسنوي(ت٧٧٢هـــ) والديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون المالكي(ت٧٩٩هـــ) في تراجم المالكية، والجواهر المضيّة في طبقات الحنفية لعبد القادر بن أبي الوفاء القرشي الحنفي (ت٧٧٥هـــ) والذيل علـــى طبقات الحنابلة لابن رجب عبد الرحمن بن أحمد البغدادي(ت٧٩٥هـــ)، كلها صنفت في القرن الثامن.

وفـــي مـــيدان البلاغة صنّف جلال الدين القزويني كتابيه : تلخيص مفتاح العلوم للسكاكي والإيضاح في علوم البلاغة، ونالا شهرة واسعة حتى يومنا هذا. ومصـــنفهما واســـمه محمد بن عبد الرحمن لم يكن أعجمياً حسبما توهم نسبته، وإنما هو عربي من بني عجل موصلي المولد وتوفى في دمشق سنة ٧٣٩هـــ.

قلـــت أن القـــرن الثامن هو قرن الموسوعات الكبرى وقرن المتون العلمية المـــنظومة وقرن كتب التاريخ والطبقات الشهيرة، وأضيف إنه قرن " الشروح المبســـوطة على النصوص التراثية المهمة" و أمثل لذلك: بألفية ابن مالك، فقد شـــرحها عالمـــان جليلان من رجال هذا القرن هما: ابن عقيل وابن هشام وقد مرّ ذكرهما.

وأمثّل لذلك أيضا: بالغيث المسجم في شرح لامية العجم للصفدي، وبتمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون للصفدي أيضاً. وبسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نُباتة المصري (ت٧٦٨هـ).

ويسيل بنا الحديث إلى معاجم اللغة العربية لنجد:

أن ابن منظور الإفريقي التونسي(ت٧١١هـ) صنّف لسان العرب، وهو أضخم معاجم العربية وملأه بالشواهد الشعرية مما لا مثيل له في بقية المعاجم السابقة عليه، صنّفه في هذا القرن. وكذلك صنع أحمد بن محمد الفيومي (ت٧٧٠هـ) معجمه " المصباح المنير" في القرن الثامن أيضاً، وكذلك صنع الفيروز آبادي (ت٨١٧هـ) قاموسه المحيط فيه أيضاً.

وثمة كلمة تخص الشعر العربي بالذات: إن كتب المختارات الشعرية ابتداءً من المفضليات فالأصمعيات، فالمختارات التي اصطلح على تسميتها بالحماسات مثل حماسة أبي تمام وحماسة البحتري والشجري والزوزني والبصري، وكتب المختارات الشعرية التي سميت بأسماء أخرى مثل منتهى الطلب والتذكرة السعدية والتذكرة الفخرية. كل هذه المختارات والحماسات والتذكرات ليس فيها من " الشعر الصافي " كما يسميه لامارتين، وهو الشعر الخالد غير المرتبط بالأشخاص أو الأحداث أو المناسبات إلا القليل. لكن هذا القرن انماز بكتاب " مختارات شعرية " كان كلّه من الشعر الصافي الخالد عبر الزمن، وأعني به كتاب " حدائق الأنوار وبدائع الأشعار " لجنيد بن محمود بن محمد الذي انتهى من تصنيفه سنة ٧٩٠هـ . لقد اختار مصنفه أكثر من ثمانمائة مقطعة ثلثها في الربيع ومظاهره وثلثها في وصف الأزهار زهرة زهرة وثلثها في وصف الثمار ثمرة ثمرة.

وقـد أسعدني الحظ بتحقيق هذا الكتاب ونشره في بيروت سنة ١٩٩٥، بعد معاناة استمرت عشرين عاماً معتمداً نسخة مخطوطة فريدة في الدنيا.

وأُضيف أن المكتبة الشعرية العربية تعتز بكتب التشبيهات، وقد طبعت منها ثلاثة: تشبيهات ابن أبي عون إبراهيم بن محمد (ت٣٢٢هـ) بتحقيق محمد عبد المعـيد خـان.وغرائـب التنبيهات على عجائب التشبيهات لابن ظافر الأزدي (٦٢٣هـ) بتحقـيق مصـطفى الصاوي وتشبيهات أهل الأندلس لابن الكتاني (ت فـي حدود ٤٢٠هـ) بتحقيق إحسان عباس، لكن القرن الثامن هذا خلّف لنا أوسـع وأمـتع كتب التشبيهات الشعرية وعنوانه " الكشف والتنبيه عن الوصف والتشـبيه " صـنّفه الصـفدي. وقد حققته عبر عقدين من السنين ودفعته إلى المطبعة. جدير بالذكر أن أدباء الأندلس وهم يرون تساقط المدن الأندلسية بأيدي القشـتاليين الإسـبان، بـادروا إلى تصنيف الموسوعات في شتى فنون الأدب وأكتفـي الإشـارة إلـى موسوعتين من كتب المختارات الشعرية هما : جيش التوشـيح للسـان الدين بن الخطيب ت (٧٦هـ) و(عدة الجليس) لابن بشري الغرناطي، وكلاهما من وفيات القرن الثامن. وقد ضمّ كل كتاب منهما مجموعة متميزة من الموشحات الاندلسية.

هـذا عـدا كـتاب " الإحاطة في أخبار غرناطة " وهو كتاب تراجم وسير طبعت منه أجزاء أربعة.

لقـد كـان عـبد العزيـز بـن سرايا الطائي الحلّي الشهير بصفيّ الدين (ت٧٥٠هـ)، أبرز شعراء القرن الثامن الهجري على امتداد الوطن العربي. وكـان شاعراً كبيراً ومصنفاً شهيراً أيضاً. أما أنه شاعر كبير فيشهد على ذلك ديوانـه الضـخم الذي لم يطبع حتى الآن طبعة علمية. وأمّا أنه مصنف شهير فذاك ما تدل عليه كتبه الثلاثة:

الأول: العـاطل الحالي والمرخص الغالي: وقد نشره المستشرق ولهلم هونرباخ فـي ويسبادن بألمانيا سنة ١٩٥٥ ثم أعاد نشره صديقنا حسين نصار في مصر ١٩٨١ثم أعيد نشر طبعة حسين نصار في بغداد ايضاً. وقد خصه

صفي الدين بالشعر الملحون: الزجل والمواليا والكان وكان والقُوما. وهو أهـــم كـــتاب قديم تعرض لهذه الفنون. لكنه لم يدرس حتى الآن دراسة علمية تليق به.

والثانـــي: مخطوطة كتابه" المثالث والمثاني في المعالي والمعاني " ومن نسخة فـــي دمشـــق وأخرى في التيمورية بالقاهرة، ومازال الكتاب يحن إلى التحقيق والنشر.

والثالـــث: " شرح الكافية البديعية " التي نشرت محققة كما ذكرنا فيما تقدم لكنها لم تدرس حتى اليوم دراسة علمية.

ويبقى الحديث بعد هذا عن النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري.

إن الـــنقد الأدبـــي والـــتأريخ له قد تحولا بعد غياب عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـــــ) إلى علم يصوغه المنطق وتغذيه الفاسقة حتى استحال إلى جملة مـــن القواعـــد الجافـــة غاب معها الذوق السليم. وكان ظهور ضياء الدين بن الأثـــير(ت٦٣٧هـــــ) "ومثلُه السائر" بمثابة انتفاضة جديدة للنقد الادبي. ثم عاد النقد بعده إلى رقدته.

حتى إذا جاء الصفدي في القرن الثامن أعاد للنقد الأدبي نكهته وروحه حين جعـــل للـــذوق الأدبي مكانته الرفيعة في العمل النقدي. وقد جسّد آراءه هذه في ثلاثة كتب:

الغيث المسجم في شرح لامية العجم- ولم يطبع حتى اليوم طبعة علمية.

ونصـــرة الـــثائر على المثل السائر- وقد طبع بتحقيق محمد علي سلطاني طبعة علمية.

والثالـــث: كتاب " الاقتصار على جواهر السلك في الانتصار لابن سناء الملك " وهـــو مخطـــوط، حققته لأول مرة بمشاركة الدكتورة السيدة ظمياء محمد عباس وهو في طريقه إلى القراء إن شاء الله.

وتمثل هذه الكتب الثلاثة قمة تطور النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري.

هـــذه أهم سمات العطاء الأدبي والفكري في القرن الثامن الهجري. وبعد: فهـــل يصـــح بعد هذا كله القول: إن القرن الثامن الهجري هو من قرون الفترة المظلمة؟ وهل يصح أن ننظر إلى الحالة الأدبية والفكرية بالمنظار السياسي وأن نقيسها عليه؟